قصائد

أمجد ناصر

منازل القمر في لندن

كنا نتكلم على الطقس، مفتاح الحديث الصدئ مع الانكليز، عندما أخبرتني جارتنا العجوز مسز مورس، الانكليزية الوحيدة في شارعنا الذي توارى عنه الإنكليز واحداً فواحداً بعد أن رجحت كفة الآسيويين فيه، أن سماء لندن لم تكن مثلما هي عليه الآن : كانت تشبه إلى حد ما السماء عندكم في الهند.

فقلت لها إنني من الأردن، فلم تتوقف عند تصحيحي الذي لم تجد فيه، ربما، ما يستحق التصحيح فمضت تقول بالطريقة الإنكليزية التي يصعب ضبط ذبذبتها العاطفية، إنهم كانوا يرون، مثلنا، النجوم ويعرفون أسماءها.. بل ويمكن لهم تتبع منازل القمر!

لم أقتنع، بالطبع، بما قالت ولكنني سايرت لعبة التأدب الإنكليزي فقلت لها: وما الذي جرى لتختفي النجوم ويختفي القمر وتتحول السماء حتى في الليالي الصافية كعين الديك إلى حلسٍ أبرش؟

أمجد ناصر، شاعر أردني يقيم في لندن

قالت لا أدري، ربما تغير المناخ، وربما استخدامنا المفرط للكهرباء، هذا التمدن الزائد عن الحد، نضيء الأرض فتختفي السماء: لعلكم في الهند أفضل حالاً على هذا الصعيد.

فقلت لها في الأردن!

فلم تتوقف عند تصحيحي للمرة الثانية. ابتسمت وأخذت توجه عربة اليد التي تتبضع بها باتجاه باب منزلها، مؤذنة بانتهاء هذا الحديث العابر الذي فرضه التأدب المحرج على جارين يحاولان، كل ما في وسعهما، تفادي الآخر عندما يلتقيان عند بابيهما.

خشيت أن أقول لها إن السماء حتى في مدن الشرق التي قوضها العسكر والفساد من الداخل هي أيضا برشاء، وإن النجوم التي بقَّعت أديم طفولتنا اختفت هي الأخرى فأفقد الميزة الوحيدة التي تحسدني عليها.

جيرة

I

لم يكن سكانُ شارعِ سبرنغ غروف كرسنت يحتاجون رؤيةَ اللافتةِ مكتوبٌ عليها بالخط الأحمر المائل سولد ، ليعرفوا أن مسز مورس الإنكليزيةَ الوحيدةَ في حينا قد رحلت. يكفي أن يروا نوافذَ البيتِ بلا الـ net curtains الُمخرَّمةِ، ناصعةِ البياضِ التي عندما كانت تهتزُّ قليلاً يعرفون أن السيدةَ الانكليزيةَ العجوزَ تواصلُ عملها الدؤوبَ في: مراقبةِ النظامِ العام، الذين يتسكعونَ في الشارع بلا هدفٍ، أو الذين يوقفونَ سياراتهم، سهواً، أمامَ مدخلِ بيتِها الذي لا تقفُ أمامَه إلا سيارةُ ابنتِها الوحيدة التي تأتي يومَ السبتِ بصحبةِ زوجِها البدينِ حاملاً معه صندوقاً من البيرة.

هذا ما يمكنُ أن يعرفَه جيرانُها الأقربونَ، أما القاطنونَ في أطرافِ الشارعِ فعرفوا ذلك من حديقتِها الُمشذّبةِ كشاربي زوجِها المتحدرين من أواخرِ أيامِ الامبراطوريةِ المتوفى بالسرطانِ قبلَ عامين، التي أخذت نباتاتُها تختفي، مَثَلَ الإنكليزِ في غربِ لندن، واحدةً بعد الأخرى.

II

مشكلتي الوحيدةُ مع مسز مورس، باستثناء استنادي، سهواً، إلى سياج حديقتِها الخشبيِّ أو رائحةِ الباربكيو التي تنبعثُ من حديقتي الخلفيةِ أيامَ الصيفِ النادرةِ، إنني لم أتمكن طوالَ سبعِ سنينَ من إقناعها أني لا أتحدرُ من شبه القارةِ الهنديةِ بل من تلكَ

المنطقةِ التي يبدو أنها لا تحملُ أخباراً سارةً إلي العالم.
لكنني، بعد ١١ سبتمبر، إياه، كنت سعيداً بفشلي هذا الذي جنبني عينَها الخفية الساهرة وراءَ الـ نت كيرتنز.

III

لم يكن اسمها مسز مورس.
هذا ما سميتُها به لأعرفَ على أي جنبٍ سأنامُ بين جاري مستر شارما وبينها في هلالٍ لم تلمعْ وسَطَه نجمةٌ واحدةٌ. فلم أعرف اسمها قطُ رُغْمَ تبادلنا التحياتِ أو الكلامِ العابرِ عند مدخل بيتينا اللذين تفصلُ بينهما حديقتُها المحسودةُ منا نحن الذين كلما رأينا عرقاً أخضرَ فكّرنا بماشيةٍ تأكلُ الأكياسَ وقشورَ البطيخ.
فالمراتُ القليلةُ التي تبادلنا فيها بطاقاتِ التهنئةِ في أعيادِ الميلادِ ورأسِ السنة كان مكتوباً عليها to next door neighbour .

لندن

٢٠٠٢/٤

محاكاة فاوست
فكّرَ أن يقولَ لها إنه مستعدٌ لمقايضةِ الشيطانِ بالعشرِ، الخمسَ عشرةَ سنةً المتبقيةِ من عمره كيما تُحبه.
ذَهَبَتْ إلى الحمامِ وعادتْ بخصرٍ يكادُ يُطوقُه بيدٍ واحدةٍ وعنقٍ يكادُ يري الدمَ الفتيَّ النزقَ يسري في عروقه، ثم واصلتْ شربَ الكأسِ التي أمامَها.
ففكّرَ أن يقولَ لها وهي تَشُدُّ بلوزَتها البوليسترَ لتغطي سُرّتَها التي يتلألأُ فيها حجرٌ كريمٌ إنه مستعدٌ أن يبيعَ الشيطانَ العشرَ، الخمسَ عشرةَ سنةً المتبقية من عمرِه من أجلِ أن تُحبَّه قليلاً.
أشعلتْ سيكارةً ونفثتْ شبكةً من الدخانِ في اتجاهه فتأهبَ للقولِ إنه مستعدٌ، الآنَ، أن يَهَبَ الشيطانَ العشرَ، الخمسَ عشرةَ سَنةً المتبقيَةَ من عمره مقابلَ ليلةٍ يقضيها معها.
شَرِبَتْ القطرةَ الأخيرةَ من كأسِها ومجّتْ آخرَ نفسٍ من سيكارتها، وضعتْ خُصلةً متمردةً من شَعْرِها وراءَ أذنِها، عَدّلتْ بلوزَتَها، تَطلّعتْ إلى ساعتِها، هَزّتْ رأسَها بأسفٍ وغادرتْ.

.....

بعدَ أيامٍ كان مع صديقٍ له في الـ واين بار نفسِه، شَعَرَ بصداعٍ رهيبٍ فأوصلَه صديقُه إلى المستشفى وقالَ له إنه لن يتأخرَ عليه، ولما عادَ لم يَجِدْه في قسمِ الطوارئ بل في جناحِ السرطان.

محاكاةَ مارك انطونيو

المقهى

جاءت ممثلةُ المسرحِ المعتزلةُ في الموعد المضروب، ببنطال كتانٍ ابيضَ وبلوزةٍ حفرٍ زرقاءَ تُبرزُ ذراعيها الأسمرين الملتمعين كرمحين مصقولين، وألقتْ نظرةً نصفَ دائريةٍ على رواد المقهى كأنها تنظرُ إلى جمهورٍ مفقود.

رأتني جالسا إلى طاولةٍ صغيرةٍ وسطَ الرواد الذين يحركونَ، تحت موجةٍ حراريةٍ مفاجئةٍ، ضجرَهم بملاعقِ الكابتشينو الطويلةِ، انتظرُ طلتها بقلبٍ لم يتعظْ يوماً، فتوجّهتْ إلي: سمراءَ، ممشوقةً، سريعةَ الانفعالاتِ كما رأيتُها في آخرِ مسرحيةٍ لها، قبلَ أن تفرَّ من شمس الشرقِ الشرسةِ، تمثلُ دورَ ملكةٍ كنعانيةٍ.

الشيءُ الوحيدُ المتغيرُ فيها تسريحةُ شعرِها المرفوعِ فوقَ رأسِها المدروسِ الحركاتِ كزهرةِ لوتسٍ تَفتحَتْ للتو.

قلتُ لها (وقلبي يقولُ كلاماً آخرَ) : تبدينَ مختلفةً.

فقالت: بالعكس.

وتَذكّرتْ رجلاً سويسرياً لم تره من قبلُ قالَ لها إنه رآها في مكانٍ ما (قلتُ في سري: حيلةٌ رجاليةٌ مكشوفةٌ لفتحِ حديثٍ مع المرأةِ) ثم استدركَ بعد أن عجزَ عن تذكّرِ أين رآها إنها تُشبِه نيفرتيتي.

.....

لم تكنْ تُشبهُ نيفرتيتي بل كليوباترا (لا أدري أيَّ دورٍ كانت تتقمصُ في تلك اللحظة) التي تَجَرَّعَ مارك انطونيو، وهو يحاولُ أن يلمسَ أصابعها الطويلةَ التي تعبثُ بأكياسِ السُكّرِ في مقهى امّحتْ، فجأةً، وجوهُ روادِه، سُماً بطيئاً لا شفاءَ منه.

الشارع

كان شارعُ الأممِ المتحدة خالياً إلاّ من شرطيٍ يغالبُ نعاساً مبكراً رغم الموجةِ الحراريةِ التي تجعلُ النومَ أو تأدية واجبٍ كئيبٍ في شارعٍ خالٍ من المارةِ سواءً.

المعجزةُ التي خَططْتُ لها، في غرفةِ عملياتِ رأسي الفاشلةِ، على طاولةٍ صغيرةٍ تفصلُ بين نَفَسِينا المضطربين حدثتْ وحدها.

اليدُ ذاتُ الأصابعِ الطويلةِ التي ظلتْ تعبثُ بأكياسِ السُكّرِ في مقهى يحركُ روادهُ ضجرَهم بملاعقِ الكابتشينو أمسكت، فجأةً، يدي. لكنَّ الحريقَ الذي اندلعَ لم يمنعْ الشرطيَ من مواصلةِ نُعاسه المُبكّر.

أما السُمُّ الذي تجرَّعه مارك انطونيو في سُورةِ حبّ يائسةٍ فقد أخذَ مفعُوله يسري.

الحفلة

كان المضيفُ مشغولاً بإعداد الطعامِ.

كانت صديقتُه الشابةُ مشغولةً به.

كان بعضُ الضيوفِ مشغولاً بالإيقاع بصديقةِ المضيفِ التي ظنتْ أن صديقها مشغولٌ بالمماثلةِ المعتزلةِ

وبعضُهم مشغولٌ بتحديدِ الفروقِ الدقيقةِ التي تفصلُ بين ما هو رومانيٌ وما هو هيلينيٌ.

كان الهواءُ الراكدُ في الخارجِ مشغولاً بسرِّ الموجةِ الحراريةِ المفاجئة.

وعلى درجِ البيتِ المشغول برائحةِ ياسمينٍ شرقيٍّ مشغولةٍ بشبحين يتنفسان بثقلٍ في الظلامِ كانت كليوباترا التي لَعَقَتْ أطرافَ أصابعها الطويلةِ التي عَبَثَتْ بأكياسِ السُكّرِ في مقهى يُحركُ روادُه ضجرَهم بملاعقِ الكابتشينو مشغولةً بالتأكدِ أن السُمَّ الحلوَ الذي تركتهُ شفتاها على شفتي مارك انطونيو قد تغلغلَ فيه تماماً.

وجهُ شبه

تحتَ وطأةِ حرٍّ فظيعٍ كنتُ أكرعُ كوباً من البيرة الباردة

عندما سمعتُ شخصاً ينفثُ دخانَ سجائرِه بصوتٍ مسموعٍ ويضربُ بقبضتهِ الطاولةَ بين فينةٍ وأخرى

يقولُ لصاحبه إن النساءَ اللاتي تعلّقَ بهن، في بحثهِ المضني عن الحبِّ، هن اللواتي رَفضْنَه أو تمنعْنَ عليه،

وذكرَ امرأتين أو ثلاثاً.

الأولى ابنةُ الجيرانِ التي فضّلتْ عليه، رُغم استعدادهِ قطعَ شراييه من أجلها، فراناً شاباً

مفتولَ العضلاتِ له غُرّةٌ على شكلِ عرفِ الديك،

وتلك لم ينسها قطُ مع أنه رآها مراتٍ بكتفينِ مهيضتينِ تجرُّ وراءَها جيشاً من الأطفال

المتقافزينَ حولها كالصيصان

(لا بد أنهم من صلبِ ذلك الفرانِ اللعين)

أما الثانيةُ فهي التي تركتْ طعماً مراً،

طعماً لم يتزحزح من حلقه،
بعد حلاوةِ قبلةٍ لم يعد واثقاً، الآن، من حصولها.
فكيف حدثَ ما حدثَ ورِغابُ الفمِ المشتهي ما زال يبللُ شفتيه؟

النبرةُ التي نطقَ بها الشخصُ كلماتِه الأخيرةَ دقتْ جرساً في أعماقي
فاستدارتْ أذناي واتسعتا كصحنين لاقطين.

كانت مضيفة طيرانٍ على خطوطٍ أجنبيةٍ
تعرَّفها في هذا البار وكان بمعيته صديقٌ آخرُ، ألعبانُ أشدُّ مكراً منه، ليته لم يَعْرِفْه
أو لم يكن معه في ذلك الموعدِ المرقونِ في لوح القدر...

لم أعد اهتمُ بالحكايةِ التي حزرتُ نهايتَها.
لكنَّ الصوتَ هو الذي نحتني في مقعدي تمثالاً بوجهين ،
إنه الصوتُ نفسُهُ
بل النبرةُ الطافحةُ بالأسى ما غيرُها
وقبضةُ اليد ذاتُها التي تهوي بانفعالٍ على الطاولةِ
والقصصُ إيَاها التي تتركُ طعماً مراً في الحلق.

خفتُ أن أتلفّتْ ورائي فأراني.

لندن

١٠ - ٢٠٠٢

رُقم طينية

(إلى
ليلى الشماع)

رأيتُها أولَ مرةٍ في ساحةٍ شعبيةٍ بعمانَ حيثُ تختلطُ أصواتُ معاوني سائقي الحافلاتِ
بباعةِ اليانصيب بدمدمةِ الأرواحِ الغابرةِ في المدرّجِ الروماني. كانت العاصفةُ الأطلسيةُ

التي ارتدتْ براقعَ الصّحراءِ انشبتْ زعانفَها في أرضِ السوادينِ فتدفّقَ عراقيونَ وعراقياتٌ لم يغادروا مدنَهم ودساكرَهم البابلية من قبلُ. لم يأبه أحدٌ بهذه الرُقمِ الطينيةِ التي تحملُ إشاراتٍ لا تعني شيئاً لمن يراهنُ على ثروةٍ سريعةٍ من ورقةِ اليانصيبِ ولا لفاتحةِ البختِ التي ترمي خرزاً وقواقعَ على خطوطِ الطوالعِ الجانحةِ في الرّمل.

يمكن أن تشتريها بدينارٍ أو تبادلَها بساندويتش شاورما وزجاجةِ كازوزٍ باردة. غير أن لهذه الكسرِ الطينيةِ التي تُقلّبُها، بأيدٍ مفلطحة، نسوةٌ متشحاتٌ بالسواد وموشوماتٌ من أعلى الجبينَ إلى أسفلِ الذقنِ قوةَ تهديدٍ كامنة.

تمليّتُ أحدَها ملياً، قلّبتُه، قرّبتُه من أنفي، مثلما تفعلُ، لسببٍ أجهلُه، النسوةُ المتشحاتُ بالسواد، فصار يزدادُ ثقلاً في يدي وتنبعثُ منه رائحةُ طميٍ وجعلتُ أرى صوراً وأسمعُ أصواتاً لم آلفها قبلاً.

رأيتُ آلهةً وملوكاً بذقونٍ مدبيةٍ، نموراً وأسوداً تزأرُ في أقفاصٍ من الذهبِ الخالصِ، أسرى يَرسفونَ بالحديد، عازفينَ يُدمونَ أصابعَهم على أوتارٍ رفيعةٍ. رأيتُ بوابةً من الآجرّ المُزججِ يطبعُها اللونُ الأزرقُ (لم أعرف إن كان لونَ سماءٍ أم تَنَهُدةَ بنتٍ)

سأراها ثانيةً وألمسَها بيدي بعد أكثرَ من عشرِ سنينَ في متحف بيرغامون في برلين.

هاتفٌ قال لي: إرم هذا الرقيمَ.

إرمه.

ليس باليد التي سيأكلُها الدودُ تحملُ عبءَ الأبد.

لندن

نيسان ٢٠٠٣

ماذا في القُبلة؟

لشدّ ما حيّره الموقعُ الإنطولوجيُّ للقُبلةِ في الحبِّ، أو ما يتصورُه حبّاً.

مرةً قالتْ له بائعةُ هوى وهي تعدّدُ ثَمَنَ كلِّ فعلٍ يقومُ به معها (منفصلةً تماماً عن جسدها أثناء شرحِ شُروطِ التعاقدِ.. والممارسةِ أيضاً) إنَّ لكلِّ شيءٍ ثمنَه.. وكلُّ شيءٍ ممكنٌ.. إلا القُبلةُ!

امرأةٌ مطلّقةٌ يعرفُها قبلَ الزواجِ وبعده تركتْ، في لحظةِ انسجامٍ كاملٍ، يدَه تصولُ وتجولُ في انحائها البهيّةِ وشفتيه تطْبعانِ قُبلاً مُذَنَّبةً على نحرِ الصدرِ، العُنقِ، الخدينِ، ولما اقتربتا من الفمِ أدارتْ له خدها.

استغربَ، طبعاً، هذا التمنعَ المفاجئ بعدَ أنْ قامَ بكلِّ ما يلزمُ للوصولِ إلى الشفتين

فقالتْ له: لستُ جاهزةً لتسليم مفتاحي!

لكنَّ الأغربَ من هذه وتلك الفتاةُ التي بالكاد يعرفُها ولم يكنْ في ذهنه لما دعاها إلى كأسٍ غيرُ تزجيةِ وقتٍ مرحٍ معاً.
الكؤوسُ المتلاحقةُ التي تجرعاها تحتَ قصفٍ مُتصلٍ من الضحكِ والهذرِ أدتْ إلى تلامس الأيدي، السيقان، تقاطع الأنفاس، فعزّزَ الاحتكاك بلمساتٍ اختباريةٍ للكتف، لوحِ الظَهر، تجويفِ الخصرِ أرادها عارضةً، كهذا اللقاء نفسه، فتحولتْ، لدهشته، ضماً وتقبيلاً على الفم، وراحَ اللسانان يفتحان محاراً في الفمِ ويُقطّرانِ عنّاباً على الشَفاه..
وإذ حاولَ الانتقال، سُفلاً، إلى الخطوةِ الأخرى أمسكتْ يدَه.
لدهشته أيضاً، بل لإحباطه، قالتْ له، بامتلاءٍ داخليٍّ لم يبلغْه، : هذا يكفي!

لا بدَّ أنه احتارَ، لاحقاً، تحتَ أيِّ نجمٍ ماكرٍ يُصّنفُ أحوالَ القُبلةِ المُتَقلّبة.
القُبلةُ..
القُبلةُ..
ماذا في القُبْلةِ؟

ابريل ٢٠٠١

تحليل القُبلة

كيف يمكنُ أن يتوقفَ الأمرُ عند هذا الحد عندما تُطبقُ الشفتان على الشفتين، ويندفع اللسانان لإيصال بريد الدم الحاميَ إلى أقصى الثغور، ولا يتكللُ المسعى بتلك الشهقات، الانتفاضات، تقطُّعِ الأنفاسِ الذي يُشبهُ مفارقةَ الحياة؟
أهو تواطؤُ نصفِ الرغبةِ
نصفِ السُكرِ
سرعان ما يتبددُ إذ تنزلقُ اليدُ لتفتحَ سحّابَ البنطلون بعدما فكّتْ عُري القميص، ونَفَرَ نهدان فتيّان لا يعترفان بأنصاف الحلول؟
أتكونُ القبلَةُ، هذا المفتاحُ السريُّ الذي نَحْسبُ أنه يفتحُ أيَّ بابٍ مهما تعقّدَ قفلُه، وضعاً
قائماً بذاته لا يؤدي إلى أيّ شيءٍ عداه،
أم نزوةً يَحْسُنُ أن تُنسى، ما دامتْ أُدْرِجتْ في دفترِ أعمالِ الليلِ الناقصةِ، في اليوم التالي؟
القُبلةُ..

القُبلةُ..
ما جدوى القُبلةِ إذن؟

ابريل

٢٠٠١

استعداد للطيران

ليست الشيخوخةُ بل النسيانُ بل الرغبةُ بالتخفف من الوجوه والأصوات والتفاصيل(التي هي الجاذبيةُ الأرضيةُ ولا شيءَ غيرها) استعدادا للإقلاع.

ألذلك كانت ترى الخيوط تفلت من يديها وتترُكها من دون أن تبذل جهداً يذكرُ للإمساك بها ، مدخرةً طاقتها للقفزة الأخيرة التي تفكُ ارتباطها بالوجوه والأصوات والتفاصيل المضنية؟

لم أجد تفسيراً أفضل لرفض جدتي تَذكُّري بشكل جيد عندما جلستُ بجانبها في غروب يزحف كنسيان على برندة بيتنا في المفرق. فالزمن، هذا السمُ البطيءُ، ضاعفَ جرعاته لمن تحبُ وتعهدها بالقليل فظلت تغالبُ بقاءً هي أول الزاهدين فيه.

ولأنني تربعتُ على الأرض لصقها تماماً بحيثُ لا يمكنُ لها أن تتفاداني فقد سألتني من أكون.
فقلت لها: يحيى.
قالت: ولكن يحيى في أمريكا!
قلت : ذلك هو أخي أحمد، أنا يحيى الذي يقيم في بريطانيا.
قالت: الله يهدمها.. كلّها بلادٌ نجسة.

ورأسها مصوب للنجوم التي كانت تنهانا عن عدها كيلا تطلع الثآليل في أيدينا بدت وكأنها تذكرتني
فقالت فجأة : جئت إذن؟
فقلت لها: نعم. جئتُ كما أجيءُ كل عام في مثل هذا الوقت ولكن من دون أولادي هذه المرة.

قالت: ولكنك لا أولاد لك.
فقلت: ذلك أحمد، أنا يحيي ومتزوج من هند، اللبنانية، تعرفينها، ولي بنت وولد.

ضربت رأسها بيدها ضربة خفيفةً معتذرةً عن هذا الخلط، ضاحكةً للمرة الأولى من وراء نظارتيها السميكتين اللتين تبدوان كمرصدٍ فلكيٍ بدائيٍ خصوصاً عندما ترفعُ رأسَها إلى السماء (وغالبا ما تفعل) وقالت: صحيح.. صحيح... صرت أنسى يا جدي !
وروت كيف تمارضتُ ذاتَ يوم قائظٍ وجعلتُها تحملُني على ظهرها من سيل الزرقاء إلى بيتنا في معسكر الجيش، ولما وصلنا رحتُ أنطُ كالقرد مع أترابي.
فقلتُ لها، وأنا سعيدٌ إنها أمسكتْ، أخيراً، طرفَ الخيطِ الذي يخصُني في أنوال تسعيناتها : لا بدَّ أنني شُفيتُ!

في الأثناء جاء والدي بسماعة الهاتف اللاسلكي من الداخل، وقال لي أخوك على الخط، وبعد أن أنهيتَ المكالمة سألتني من الذي كنتُ أكلمَهُ فقلتُ لها: أحمد.

كأنني ألعبُ معها لعبةَ سخيفةً طالتْ أكثر مما ينبغي تطلَّعتْ إليَّ باستنكار وقالت: فمن أنت إذن ؟

لندن ـ صيف ٢٠٠١

قناع كفافي

كشاعره الشابِ، الذي ظنَّ أن درجةً واحدةً في سُلمِ الشِّعرِ الطويلِ ليست شيئاً ذا بال، زرتُ يوماً بيتَ كفافي.
إسكندريةُ الشّاعرِ ذي القناع الهليني الماكرِ تحيا، فقط، في القصائد، أما الشمعةُ الإضافيةُ التي كانت تضيءُ وجهَ الجمالِ الفتيِّ وجذعَه المستقيمَ في صالة المنزل الوثني فظلت تتراقصُ في كتابٍ قرأتُه تواً.
سريعاً، مثل مروري بالمعاني (لا بالصور) ألقيتُ نظرةً على أنحائه الثلاث: الحانةِ التي تُسكرُ، الكنيسةِ التي تصفحُ، المستشفى حيث يموتُ ولم أرَ سوى الأمثالِ تلغو بالعِبَرِ.
مشيتُ شارعاً، شارعينِ، فكّرتُ بسطوةِ الحبِّ على قلبِ أنطونيو وبأهواء كليوباترا

تتراقص بين الرّماح والرؤوس.

أكلتُ سمكاً عند عجوزٍ إسكندرانيٍّ يدعى قدورة وحبستُ، حَسبَ تعبيرِ المصريينَ، على اللذة الدنيا، شاياً غامقاً كالحبر.

تخيلتُ كفافي، حينها، أنا الفتى الذي ما حَسِبَ يوماً أن سلحفاةِ الأيامِ ستجتازُ خطوةَ المُجَنحَ، عجوزاً دردبيساً يقف عنيداً عند زاوية منحرفة عن الكون قليلا .

مبكراً، ومرتحلاً من مدينة إلى أخرى، طاردتني قصيدتُه المدينة كنبوءةٍ أشدَّ شؤماً من نبوءة أمي عن نفسي التي لن تعرفَ الراحة مهما طالَ الزمانُ وتبدلت الأمكنة.

.....

ثم نَسِيتُ كفافي، نَسِيتُ بيتَه، نَسِيتُ نبوءةَ أمي، نَسِيتُ قدورة (ما نَسِيتُ سمكَه!) ، لكنَّ إزميلاً خفياً، تحت جُنح النسيانِ (.. الذي هو العمرُ نفسُه) ظلَّ يَنْقُبُ، بضرباتٍ صغيرةٍ منتظمةٍ، قلعتي من الداخل والخارج.

ودونما سببٍ يُذكرُ عدتُ لقراءة كفافي ثانيةً فتذكّرتُ بيتَه، رقصة الشمعةِ الإضافيةِ، بقايا العز القديم لمدينة الإسكندر الكوزموبوليتيه، وفهمتُ ما لم يقيض لي فهمه من قبلُ، زهوَ شبانِ قصائده، بأجسادٍ ترشقُ الليلَ بشررٍ من نحاسٍ، وكآبةَ عجائزه تحت جلودٍ أكلَ الدهرُ عليها وشرب.

تراءى لي الخواجةُ اليونانيُّ، ملاحظُ القنواتِ والسدود، يقتفي، متنكراً، أزياءَ مصريةً يَنْفُرُ منها نهاراً ويتمرّغُ برائحةِ ذكورتِها الحرّيفةِ ليلاً.

يتوسلُ، بعربيةٍ مُضحكةٍ، لحوذيٍ، قهوجيٍّ، ابنِ ليلٍ زنيمٍ أن يطفىءَ ضِرامَ شهوتِهِ المنْحرفةِ (مثل وقفتِه) التي تقودُه، مُسرنماً، إلى الحضيض.

.....

إنه الليلُ يا كفافي.
الليلُ.
حيثُ تهتكُ بروقُ اللذةِ الموعودةِ قناعَ النَّهارِ الرصين.
ستقولُ لنفسِك هذي آخرُ ليلةٍ،
آخرُ زردةٍ في القيد
وانتزعُ بيدي قلبَ هذا الليلِ الذي يأخذُني بالتلابيب،
سيكون هناك طريقٌ آخرُ،
حياةٌ أخرى.

ولكنك لن تفعل.
فليلةٌ بعد ليلةٍ ستمشي الخطى ذاتُها
في الأحياء نفسِها
مأخوذاً بالتلابيب.
فلا مفرَّ
ولا طريقَ.

إنه الليلُ.
عطرُ الإثم،
كاليبسو الباحثين عن أي درب، أي شراعٍ إلي البيت.
الأشباحُ تتراقصُ في الظلمة،
أبواقُ وكونترباصاتُ تستدْرجُ رغباتٍ كلما رميتَ لها بضعةً من لحمك
فغرتْ شِدقَها من جديد.

إنه الليلُ.
سيجدُ إليك طريقاً أنّي كنت
فتأهبْ كي تقولَ له وداعاً
مثلما قال انطونيو، بلوعةٍ، وداعاً للإسكندرية.

القصائد من مجموعة قيد الطبع بعنوان «حياة كسرد متقطع»